المحاضرتان الخامسة والسادسة

حياة الجاحظ (١)

—«»—

تفوتنا نواحٍ كثيرة من نواحي الجاحظ التي تشرع لنا باباً الى الوقوف على تفاريق حياته ، على اننا نستطيع ان نحيط بنبذ غير يسير من هذه الحياة وان لم يكن لنا بهذه الاحاطة مقنع ، فقد نستطيع مثلاً ان نعرف طائفة من امور ميلاد الجاحظ ، وأهله ، وهيأته ، وابتداء تثقيفه ، وحالات عقله في صباه ، وحرفته في اول امره ، وثروته ، وأعماله ، ولهوه ، واعتنائه بداره ، وأكابر الرجال الذين لازمهم في حياته ، وتعذيبه بسبب صحبته لاحد هؤلاء الاكابر ، ومكاتبتهم له ، وأسفاره الى انطاكية والى دمشق والى مصر ، وآثار هذه الأسفار وطبيعة هذه الآثار ، وعلته في آخر حياته ، وتأثير هذه العلة في بعض كتاباته ، وتعقب الناس له في التماس بعض المطاعن ومداراته اياهم ، وضجره من لؤم اخلاقهم ، ووفاته .

نعم قد نستطيع ان نعرف هذا كله ، لكن هذه المعرفة لا تنقع غليلاً قياساً الى مابعرفه أدباء الافرنجة من امور كتابهم وشعرائهم وأشباه هذه الطبقات ، على ان أمرنا لا يشبه امرهم ، فان آثار عقولنا مبعثرة وقد ضاع كثير من هذه الآثار وما حفظ منها قد يصعب وصول الايدي اليه ، ولم يكتب لنا ان نكون أمة مجموعة الشمل من قديم الدهر يسلم كل عصر من العصور نتائج عبقريته الى العصر الذي يليه حتى تطرد هذه العبقرية فيزيد

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الادب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الآخر في ميراث الاول فيضيف مستحدث الأدب الى قديمه ، ثما فائنا في الماضي فعساه ان لا يفوتنا في الحاضر والآتي .

فلنشرع في ذكر ما اتصل بنا علمه من حياة الجاحظ[1] .

ميلاده

لم يذكر الانباري ولا ابن عساكر ولا ابن خلكان السنة التي ولد فيها الجاحظ وانما ذكروا السنة التي مات فيها وقالوا : نيف على تسعين سنة ، وذكر ياقوت في معجمه ان الجاحظ قال : انا أسن من ابي نواس بسنة ولدت في اول سنة ١٥٠ وولد في آخرها .

ولكن ابن خلكان قال في كلامه على ميلاد ابي نواس : وذكره الخطيب ابوبكر في تاريخ بغداد وقال : ولد في سنة خمس واربعين وقيل سنة ست وثلاثين ومائة .

وقال الانباري قبل ابن خلكان : ولد ابو نواس سنة خمس واربعين ومائة وقيل ولد سنة ست وثلاثين ومائة .

وقد ذكر بعض الذين طبعوا ديوان ابي نواس انه ولد في سنة احدى واربعين ومئة .

من هذا كله يتبين لنا ان رواية ميلاد الجاحظ لا تخلو من اضطراب ، ولكننا اذا علمنا ان الجاحظ مات في سنة ٢٥٥ وانه شكا في أواخر ايامه كبر السن فقال : وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ، سهل علينا ان نقول ان الجاحظ ولد في سنة تسع وخمسين ومائة او في سنة ستين ومائة بوجه التقريب .

اهله

أجمعوا على ان الجاحظ اسمه عمرو بن بحر بن محبوب وهو كناني ليثي نسبة الى ليث ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة .

وقالوا : كان الجاحظ مولى ابي القلمس عمرو بن قلع الكناني ، ثم الفقيمي .

ومنهم من أضاف الى هذا : وهو كناني ، قيل صليبه ، وقيل مولى .

---

(١) استندت في الكلام على حياة الجاحظ الى كتب ابن خلكان وابن عساكر والى معجم الادباء لياقوت الرومي والى طبقات الادباء للأنباري .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان جده اسود يقال له : فزارة ، وكان جمّالاً لعمرو بن قلع الكناني .

اما كنيته فقد قال ابوبكر العمري ، سمعت الجاحظ يقول : نسبت كنيتي ثلاثة ايام فأتيت اهلي فقلت : بمن أكنى ، فقالوا بابي عثمان[1] .

هذا كل ما نعرفه من نسبه واسمه وكنيته وأظن ان هذه المعرفة لا تضيء ظلمة ، فان ناحية نسبه غامضة .

غير اننا نعلم ان للجاحظ أقارب عاشوا بعده ، وأريد بهؤلاء الاقارب يموت بن المزرّع وولده ابا فضلة ، اما يموت فقد ذكر عنه ابن خلكان انه ابن اخت الجاحظ ولكن يموت يقول : الجاحظ خال امي[2] .

عاش يموت بن المزرّع بعد وفاة الجاحظ وقدم بغداد سنة احدى وثلاثمائة وهو شيخ كبير وحدّث بها عن المازني والسجستاني والرياشي وعبد الرحمن بن اخي الاصمعي وعن غيرهم وكان أديباً اخبارياً وله ملح ونوادر وحكايات وكان لا يعود مريضاً خوفاً من ان يتطير باسمه وكان يقول : بليت بالاسم الذي سماني به ابي ، فاذا عدت مريضاً فاستأذنت عليه فقيل : من هذا ؟ قلت : انا ابن المزرّع وأسقطت اسمي .

سافر يموت الى مصر مراراً ومات سنة اربع وثلاثمائة بطبرية الشام .

يتصل بعض نسبه بحكيم بن جبلة ، وحكيم هذا كان من أعوان علي بن ابي طالب وكان صاحب الشرطة في البصرة وقتل بالبصرة .

خلّف يموت بن المزرّع ولداً اسمه ابوفضلة مهلهل وكان شاعراً ذكره المسعودي في كتابه وذكره الخطيب في تاريخ بغداد فقال : هو شاعر مليح الشعر في الغزل وغيره ، وسكن بغداد .

وفيه يقول أبوه مخاطباً له في قصيدة[3] :

فجُبْ في الارض وابغ بها علوماً ... ولا تقطعك جائحة ثبوت

وان بخل العليم عليك يوماً ... فذلّ له ، ودبدنك السكوت

---

(١) تاريخ ابن عساكر . (٢) تاريخ ابن عساكر .

(٣) عن تاريخ ابن خلكان بتصرف يسير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقل : بالعلم كان ابي جواداً يقال : ومن ابوك ، فقل : يموت

من هذا كله نستطيع ان نستنبط أن من أقارب الجاحظ من اشتهر بمحبة العلم وبالملح والنوادر فكان بينهم وبين الجاحظ مشابه في هذا الباب فان الجاحظ طلاب للعلم مفتون بالنوادر .—

هيأته

كان الجاحظ مشوّه الخلق وانما قيل له الجاحظ لان عينيه كانتا جاحظتين والجحوظ النتوء وكان يقال له ايضاً الحدَقي . ومن جملة اخباره انه قال : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني .

تحصيله

أين طلب الجاحظ العلم في صغره

يظهر لنا ان الجاحظ كان في ابتداء امره يحمل اللوح بيده و يغدو على كتابه على نحو ما كانت عليه الحال في هذه الديار من عشرين سنة وعلى نحو حالنا في يومنا هذا فان الكتاتيب لم يبطل امرها في بعض القرى واحياء المدن . واليكم القصة التي رواها لنا وهي من آثار الكتّاب قال[1] :

« وأنا حفظك الله رأيت كلباً مرة في الحي ، نحن في الكتاب فعرض له صبي يسمى مهدياً من اولاد القصابين وهو قائم يمحو لوحه ، فعضّ وجهه ، فقمع ثنيّته دون موضع الجفن من عينه اليسرى فخرق اللحم الذي دون العظم الى شطر خده فرمى به ملقياً على وجهه وجانب شدقه وترك مقلته صحيحة وخرج منه من الدم ماظننت انه لا يعبش معه وبقي الغلام مبهوتاً قائماً لا ينبس وأسكته الفزع وبقي طائر القلب ثم خيط ذلك الموضع ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد الى الكتّاب وليس في وجهه من الشتر الا موضع الخيط الذي خيط ، فلم ينجع الى ان بريء ولا هرّ ولا دعا بماء حتى اذا رآه صاح : ردوه ، ولا بال جروا ولا عَلَقاً ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير» .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثاني ص ٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولئن دلتنا هذه القصة على ان الجاحظ طلب العلم في اول امره في الكتّاب مع ابناء القصابين وغيرهم فلقد دلتنا على شيء أعظم من هذا كله فاني ارى فيها اثر عنصر من عناصر عبقرية الجاحظ فأبو عثمان نقريس من صغر امره ، والكلمة من كلامه ، والنقريس النظّار المدقق والجاحظ مطبوع على التدقيق لا يريد ان يتفلّت منه امر قبل الاهتمام به ، على ان هذه القصة تشتمل على اشياء غير ما ذكرت فانها تدل على قوة حفظ الجاحظ فقد رواها وهو ابن سبعين بوجه النقريب ، فلم يهمل في روايتها لوناً من الالوان او حركة من الحركات او هيأة من الهيآت ، ولكن فيها غير قوة الحفظ فان كلمته : يمحو لوحه ، تتضمن سراً من أسرار لغته ؛ فهي تشبه الكلمة التي نبهتكم عليها منذ اسبوعين : أين تذهب في هذا المطر والبرد .

فبأي كلام نفصح في هذا اليوم عن فكرة مثل هذه الفكرة ، أفنستطيع ان نجد أسهل من هذا التعبير : يمحو لوحه ، على ان هذا المقام لا يتسع للخوض في مثل هذا البحث ولكني أحببت ان أشير الى شأن الآثار التي يبقيها لنا الكاتب مما يتعلق بصباه وبحياته فان هذه الآثار تكشف لنا الغطاء عن كثير من عبقريته .

حالات عقله في صباه

وكما عرفنا ان الجاحظ نشأ في الكتّاب فقد عرفنا حالةً من حالات عقله في تلك الصبوة الغامضة فمن هذه الحالات طائفة من أوهامه ، قال[1] :

واما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش فانهم يزعمون ان الخفاش اذا عض الصبي لم ينزع سنه من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشي فما أنسى فزعي من سنّ الخفاش ووحشتي من قربه ايماناً بذلك القول الى ان بلغت » .

ومن هذه الخرافات التي بريء الى الله منها قوله[2] : وزعم لي بعض العلماء ممن قد روى الكتب وهو في ارث منها ان حية يقال لها الدساس تلد ولا تبيض وان أنثى النمور لم تضع نمراً قط الاّ ومعه أفعى .

(١) كتاب الحيوان (الجزء الثالث ص١٦٧) .
(٢) » » (الجزء الرابع ص ٧٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والاعراب تزعم ان الكمأة تبقى في الارض فتمطر مطرة صيفية فيستحيل بعضها أفاعي فسمع هذا الحديث مني بعض الرؤساء الطائيين فزعم لي انه عاين كمأة ضخمة فتأملها فاذا هي تتحرك فنهض اليها فقلعها فاذا هي أفعى ، هذا ماحدثته عن الأعراب حتى برئت الى الله من عيب الحديث » .

هذه معتقدات صبي مالبث ان نشأ وترعرع فكان على العقل معتمده واليه مستنده في كل امر من امور الدين والفلسفة والعلم فلم يبق من تلك المعتقدات اثر .

حرفته وثروته

الى اي حرفة كان يحترف الجاحظ بعد خروجه من الكتّاب فقد قيل لنا أنه رؤي يبيع الخبز والسمك بسيحان (نهر بالبصرة) .

ولكن هل طال عهده ببيع هذا الخبز وهذا السمك ، فالذي نعلمه انه جمع مالاً لا بأس به ، قال ميمون بن هارون قلت للجاحظ[1] :

ألك بالبصرة ضيعة فتبسم وقال : انما أنا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار ، أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار وأهديت كتاب البيان والتبيين الى ابن ابي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار وأهديت كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار فانصرفت الى البصرة ومعي ضيعة لاتحتاج الى تجديد وتسميد » .

أعماله

ولقد جمع هذا المال وتقلّد جلائل الاعمال فقد صدّر في ديوان الرسائل ايام المأمون ثلاثة أيام ثم انه استعفى فأعفي وكان سهل بن هارون يقول : ان ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتّاب .

وكان يتقلد خلافة ابراهيم بن عباس الصولي على ديوان الرسائل ويحكى انه لما جاء الى الديوان جاءه ابوالعيناء فلما أراد الانصراف تقدم الجاحظ الى حاجبه اذا وصل الى

(١) معجم الادباء لياقوت (الجزء السادس ص ٧٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدهليز ان لا يدعه يخرج ، ولا يمكنه من الرجوع اليه ، فخرج ابو العيناء ففعل به ذلك ، فنادى باعلى صوته : يا ابا عثمان قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك .

فانظروا كيف يميل الى الهزل حتى في دواوين الخلفاء . ولكنه لم يخلق لهذه الدواوين . فقد خرج الجاحظ من ديوان الرسائل وفي نفسه عاملان : عامل الهزوء وعامل الطموح فلنوضح هذا الامر .

كان الجاحظ على نحو ما صوّره لنا الفتح بن خاقان في رسالته اليه صاحب عظمة في نفسه ، يثق بعلمه وبمعرفته ، وان رجلاً قد شعر من نفسه بهذه العظمة ليصعب عليه ان يكون في ديوان مسلوب الإرادة فيه ، يعمل لرجال ربما كان يعتقد انه أرفع منهم منزلةً ، وأعلى شأناً ، فما وسعه الا ترك الديوان ، حتى يتبسط في أفق اعلى ، وينفسح في جوّ أمدّ ، ليس بينه وبين شيء من مرادات نفسه حاجز يحجز ، او حائل يحول ، يوفر على هذه النفس كرامة ، قد لا يستطيع ان يوفرها وهو راسف في قيد السلطان ، ويتمتع بقراءة كتب كانت غذاء روحه مدة قرن .

خرج الجاحظ من ديوان الخليفة لانه صاحب اعتماد على نفسه يجب ان يعيش مطلقاً من كل قيد فلم يخلق لامثال هذه الدواوين التي لا تخلو من القيد ، وخاصة ان الجاحظ رجل مطبوع على الهزء والسخرية ، ومن كان هذا شأنه قد يتعذر عليه ان يجدّ ونفسه تبعثه على الهزل وان ينقاد وطبعه يدفعه الى الانطلاق فما أحبّ ان يقيد نفسه في ذرا الدواوين ، فان رجلاً قد خبر عمل السلطان ، وكان رأيه في هذا العمل على الوجه الآتي (١) :

« وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه ، وقار به بخدمته ، فان اولئك لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن لهم خوَل مملوءة قد لبسها الرعب والفها الذل ، وصحب ترقب الاحتياج فهم مع هذا في تكدير وتنغيص خوفاً من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول واعتراض حلول المحن ، فان هي حلّت وكثيراً ما تحلّ فناهيك بهم

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد (الجزء الثاني ص ٢٤٨) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مرحومين يرق لهم الاعداء فضلاً عن الاولياء » .

لبعيد عادةً عن ملابسة السلطان بنفسه ومقاربته بخدمته وخاصة ان كان قد شاهد المحن التي أشار اليها وشاهد بمن حلت وسنتكلم عليها في الآتي .

ان رجلاً يقول في مدح التجار (١) :

« اودع النـاس بدناً واهنأهم عيشاً وآمنهم سرباً ، لانهم في أفنيتهم وكالملوك على أسرتهم يرغب اليهم اهل الحـاجات وينزع اليهم ملتمسو البياعات لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم ولا يستعبدهم الضرع لعاملاتهم . »

لطماح الى أفق يشبه افق التجار يتمتع فيه بدعة البدن وهناء العيش وأمن السرب ، ولئن نزعت بالجاحظ نفسه عن عمل يجد فيـه الذل والملق والضرع فربما نزعت به هذه النفس الى عمل يكون فيه صاحب الامر النافذ يضرع الناس اليه و يذلون له بدلاً من ان يكون الضارع الذليل ، وما يتيسر له مثل هذا العمل الا في ظلال الخلافة فكأنما وسوست له نفسه ان يذوق لذة هـذه الخلافة فاذا صحت الرواية التي رواها ابن عساكر في تاريخه وهذه هي :

«دخل رجل على الجاحظ فقال له : يا ابا عثمان ، كيف حالك ، فقال الجاحظ سألتني عن الجملة (٢) فاسمعها مني واحداً واحد ، حالي ان الوزير يتكلم برأيي و ينفذ امري ، ويواتر الخليفة الصلات اليّ وآكل من لحم الطير اسمنها وألبس من الثياب الينها وأجلس على ألين الطبري وأتكيء على هذا الريش ثم اصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج ، فقال له الرجل الفرج ما أنت فيه ، قال : بل احب ان تكون الخلافة لي ويعمل محمد بن عبدالملك بأمري و يختلف اليّ ، فهذا هو الفرج ! » .

إذا صحت هذه الرواية فمعناها ان الجاحظ لم يجد لذة في التصدير في ديوان الرسائل لأنه لم يعمل بأمره ، وانما كان يعمل بأمر الخليفة ، على حين يجد لذته في الانفراد بالامر والنهي ، فهل افصح عن أمانيه لما قال (٣) :

(١) رسائل الجاحظ على هامش كامل المبرد (الجزء الثاني ص ٢٤٨) .

(٢) في الاصل سألتني عن الجلة ، وفي نسخة عن الجملة .

(٣) كتاب الحيوان — الجزء الثاني ص ٣٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وليس شيء الذ ولا أسرّ من عز الامر والنهي ومن الظفر بالاعداء ومن عقد المنن في اعناق الرجال والسرور بالرئاسة وبثمرة السيادة لان هـذه الامور هي نصيب الروح وحظ الذهن وقسم النفس . »

وكيف كان الامر فاننا نحمدالله الذي لم يأته بالفرج ، فلو أتاه لحرمت العربية شيئاً غير يسير ، بيد انه ان فاته الرياسة عن سبيل السلطان فقد اتته هذه الرياسة منقـادة اليه عن سبيل الادب ولا شك في ان الادب اخلد اثراً من كل سيادة وسلطان !

فالذي نراه ان الجاحظ عاش في نعمة وربما اعطي نفسه حقها من اللهو فقد كان المكي يعشق جارية يقال لها سندوة ثم تزوجها نهارية وقد دعاه الجاحظ الى منزلها غير مرة .[1]

اعتناؤه بداره

عاش الجاحظ في نعمة وقد بقيت منه آثار فيها شيء يدل على التحقيق العلمي لكن هذا الشيء لا يخلو من الدلالة على اعتناء الجاحظ بداره ، فمرة كان يصرف هذه العناية الى غرس الاشجار ، فمن قوله :[2]

« ولقد اردت ان اغرس في داري أراكة فقالوا لي : ان الاراك انما تنبت من حب الاراك يغرس في جوف طين في قواصر و يسقى الماء اياماً فاذا نبت الحب وظهر نباته فوق الطين وضعت القوصرة كما هي في جوف الارض وتُكنّ الى ان تصـير في جوف الارض فان الذرّ تطالبه مطالبة شديدة وان لم تحفظ منها بالليل والنهار أفسدتها فعمدت الى مشارات من صُفر من هذه المسارح وهي في غاية الملاسة واللين فكنت اضع القوصرة على الترس الذي فيه الاملس فاجد فيه الذرّ الكثير فكنت انقل المشارة من مكان الى مكان فما أفلح ذلك الحب . — »

ومرّة كان يصرفها الى تعليق الابواب الثمينة ، فمن هذا قوله :[3]

« ومثل ذلك قول نجار كان عندي دعوته لتعليق باب ثمين كريم فقلت له : ان

(١) — كتاب الحيوان — الجزء الخامس — ص ١٣٨

(٢) — كتاب الحيوان — الجزء الخامس — ص ١٢٥

(٣) — كتاب الحيوان — الجزء الثالث — ص ٨٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إحكام تعليق البـاب شديد ولا يحسنه من مائة نجار نجار واحد وقد يذكر بالحذق في نجارة السيوف والقباب وهو لا يكمل تعليق باب على تمام الاحكام والقباب عند العامة اصعب ولهذا امثال فمن ذلك ان الغلام والجارية يشويان الجدي والحمل وهما يحكمان الشيّ وهما لا يحكمان شي جنب ومن لا علم له يظن ان شي البعض اهون من شي الجميع فقـال لي : قد احسنت حين اعلمتني انك تبصر العمل فان معرفتي بمعرفتك تمنعني من التشقيق فعلّقه فاحكم تعليقه ثم لم يكن عندي حلقة لوجه الباب اذا اردت اصفاقه فقلت له اكره ان اجلسك الى ان يذهب الغلام الى السوق و يرجع ولكن اثقب لي موضعها فلما ثقبه واخذ حقه ولأني ظهره للانصراف والتفت الي فقال : قد جودت الثقب ولكن انظر اي نجار يدق فيه الرزّة فانه انـ اخطأ بضربة واحدة شق البـاب فعلمت انه يفهم صناعته فهماً تاماً . — »

من هذا كله تستنتجون ان الجاحظ ملمّ بكل امر سواء أكان هذا الامر صغيراً أم كان كبيراً فهو لا يشبه بعض العلماء الذين تقوى فيهم ملكة وتضعف ملكات حتى يكاد يصل بهم الضعف الى البلاهة ، وانما هو كامل من الكملة .

ملازمته لاكابر الرجال — من هم الرجال الذين لازمهم في حياته .

قال ياقوت في معجم الادباء : (١)

« وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك خاصاً به ، وكان منحرفاً عن احمد بن ابي دواد للعداوة بين احمد ومحمد ، ولما قبض على محمد هرب الجاحظ فقيل له لمَ هربت فقال : خفت أن اكون ثانيَ اثنين اذ هما في التنور ، يريد ما صنع بمحمد وادخاله تنورَ حديدٍ فيه مسامير كان هو صنعه ليعذّب الناس فيـه ، فعذب هو حتى مات يعني محمد ابن الزيات . — »

من هو محمد بن عبد الملك ومن هو احمد بن ابي دواد وما هي العداوة بينهما . (٢)

(١) معجم الادباء — الجزء السادس — ص ٥٧

(٢) اعتمدت في الكلام عليهما على تاريخ ابن خلكان . —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اما محمد بن عبد الملك فهو أبو جعفر المعروف بابن الزيات وزير المعتصم وهذه قصة وزارته :

كان احمد بن عمار بن شاذي البصري وزير المعتصم فورد على المعتصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه وكان في الكتاب ذكر الكلأ فقال له المعتصم : ما الكلأ فقال لا اعلم ، وكان قليل المعرفة بالادب ، فقال المعتصم : خليفة امي ووزير عامي !

وكان المعتصم ضعيف الكتابة ثم قال: ابصروا من بالباب من الكتاب ، فوجدوا محمد ابن الزيات فادخلوه اليه فقال له : ما الكلأ ، فقال : الكلأ العشب على الاطلاق فان كان رطباً فهو الخلا فاذا يبس فهو الحشيش ، وشرع في تقسيم انواع النبات فعلم المعتصم فضله ، فاستوزره وحكمه و بسط يده .

ولما مات المعتصم وقام بالامر ولده الواثق هرون أقر الواثق ابن الزيات على ما كان عليه في ايام المعتصم بعد ان كان ساخطاً عليه في ايام ابيه ، وحلف يميناً مغلظة انه ينكبه اذا صار الامر اليه ، فلما ولي أمر الكتاب ان يكتبوا ما يتعلق بامر البيعة فكتبوا فلم يرض بما كتبوه فكتب ابن الزيات نسخة رضيها وأمر بتحرير المكاتبات عليها . فكفر عن يمينه وقال : عن المال ، والفدية عن اليمين عوض وليس عن الملك وابن الزيات عوض .

فلما مات الواثق وتولى المتوكل كان في نفس المتوكل من ابن الزيات شيء وسببه انه لما مات الواثق بالله اخو المتوكل أشار ابن الزيات بتولية ولد الواثق واشار ابن ابي دواد الآتي ذكره بتولية المتوكل وقام في ذلك وقعد حتى عممه بيده والبسه البردة وقبله بين عينيه وكان المتوكل في ايام الواثق يدخل على الوزير ابن الزيات فيتجهمه الوزير ويغلظ له في الكلام متقرباً بذلك الى قلب الواثق فأضمرها المتوكل في نفسه فلما ولي الخلافة خشي ان نكبه عاجلاً ان يستر امواله فيفوته فاستوزره ليطمئن وجعل ابن ابي دواد يغريه ويجد لذلك عنده موقعاً حتى قبض المتوكل على ابن الزيات فلم يجد من جميع املاكه وضياعه وذخائره الا ما كانت قيمته مائة الف دينار فندم على عمله وقال لابن أبي دواد : اطمعتني في باطل وحملتني على شخص لم اجد عنه عوضاً .

كان ابن الزيات قد اتخذ في ايام وزارته تنوراً من حديد واطراف مساميره المحدودة الى الداخل وهي قائمة مثل رؤس المسال وكان يعذب فيه المصادرين وارباب الدواوين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

المطلوبين بالمال ، فكيفما انقلب واحد منهم او تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه ، فيجدون لذلك اشد الالم ولم يسبقه احد الى هذه المعاقبة وكان اذا قال له احد منهم ايها الوزير ارحمني ، فيقول له : الرحمة خور في الطبيعة .

فلما اعتقله المتوكل أمر بادخاله في التنور وقيّده بخمسة عشر رطلاً من الحديد فقال ابن الزيات : يا امير المؤمنين ارحمني ، فقال له المتوكل : الرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول للناس فلما كان في الحبس طلب دواة و بطاقة فأُحضرتا اليه فكتب :

هي السبيل فمن يوم الى يوم كأنه ما تريك العين في النوم

لا تجزعنّ رويداً انها دول دنيا تنقل من قوم الى قوم

وسيرها الى المتوكل فاشتغل عنها ولم يقف عليها الا في الغد ، فلما قرأها المتوكل أمر باخراجه فجاؤا به اليه فوجدوه ميتاً وذلك في سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وكانت مدة اقامته بالتنور اربعين يوماً فهذا هو التنور الذي خاف الجاحظ ان يكون فيه ثاني اثنين .

ولكن هل نجا الجاحظ من عذاب ابن ابي دواد بعد موت صاحبه ابن الزيات ، اظن انه لم ينج من شيء من ذلك وقبل ان نبين ماصنع به ابن ابي دواد لا حرج علينا ان أوجزنا في كلمة على ابن ابي دواد .

قال ابراهيم بن الحسن : كنا عند المأمون فذكروا من بايع من الانصار ليلة العقبة فاختلفوا في ذلك ودخل احمد بن ابي دواد فعدّهم واحداً واحداً باسمائهم وكناهم وانسابهم فقال المأمون : اذا استجلس الناس فاضلاً فمثل احمد فقال احمد : بل اذا جالس العالم خليفة فمثل امير المؤمنين الذي يفهم عنه و يكون أعلم بما يقول منه .

هذا هو احمد بن ابي دواد !

ولما ولي المعتصم الخلافة جعل ابن ابي دواد قاضي القضاة وعزل يحيى بن اكثم وقد خصّ به أحمد بن ابي دواد حتى كان لا يفعل فعلاً باطناً ولا ظاهراً الا برأيه .

ولما مات المتعصم وتولى بعده ولده الواثق بالله حسنت حال ابن ابي دواد عنده ولما مات الواثق بالله وتولى اخوه المتوكل فلج ابن ابي داود في اول خلافته فولي موضعه ولده ابو الوليد محمد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكثر ذامّوه وقل شاكروه واستمرّ على مظالم العسكر والقضاء الى سنة سبع وثلاثين ومائتين فسخط المتوكل على القاضي احمد وعلى ولده محمد وصرف ولده عن المظالم ثم صرفه عن القضاء واخذ من الولد مائة الف وعشرين الف دينار وجوهراً بأربعين الف دينار وسيّره الى بغداد من سرّ من رأى وفوّض القضاء الى القاضي يحيى بن اكثم الصيفي.

كان بين قاضي القضاة احمد بن ابي دواد وبين الوزير ابن الزيات منافسات وشحناء وقد هجا بعض الشعراء الوزير ابن الزيات بقصيدة عدد ابياتها سبعون بيتاً فبلغ خبرها القاضي احمد فقال:

احسن من سبعين بيتاً هجا ... جمعك معناهن في بيت

ما احوج الملك الى مطرة ... تغسل عنه وضر الزيت

فبلغ ابن الزيات ذلك ويقال ان بعض اجداد القاضي احمد كان يبيع القار فقال:

ياذا الذي يطمع في هجونا ... عرّضت بي نفسك للموت

الزيت لا يزري باحسابنا ... أحسابنا معروفة البيت

قيرّتم الملك فلم ننقه ... حتى غسلنا القار بالزيت

تعذيبه

قلت: لم ينج الجاحظ من شر ابن ابي دواد لأنه كان منحرفاً عنه، ملازماً لعدوه ابن الزيات. فماذا صنع به ابن ابي دواد؟

قال ابو عبدالله المرزباني [1]:

«حدث اسحاق الموصلي وابو العيناء قال: كنت عند احمد بن ابي دواد بعد قتل ابن الزيات فجيء بالجاحظ مقيداً وكان من اصحاب ابن الزيات وفي ناحيته، فلما نظر اليه قال: والله ماعلمتك الا متناسياً للنعمة كفوراً للصنيعة، معدداً للمساوي ومافتئت باستصلاحي لك ولكن الايام لاتصلح منك [2] لفساد طويتك ورداءة دخلتك وسوء اختيارك وتغالب

(١) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس ص ٥٨

(٢) في الاصل: لا تصلح منك الاّ لفساد طويتك... فأظن ان «لا» زائدة فلا محل لها.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

طبعك فقال له الجاحظ : خفض عليك ايدك الله فوالله لئن يكون لك الامر عليّ خير من ان يكون لي عليك ولئن اسيء وتحسن أحسن عندك من ان احسن فتسيء ، وان تعفو عني حال قدرتك أجمل من الانتقام مني ، فقال له ابن ابي دواد : قبحك الله ما علمتك الا كثير تزويق الكلام وقد جعلت ثيابك اما قلبك ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر ، ما تأويل هذه الآية : وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ، ان اخذه اليم شديد . قال تلاوتها تأويلها اعز الله القاضي ، فقال : جيئوا بجلاد ، فقال : اعز الله القاضي ، ليفك عني او ليزيدني فقال : بل ليفك عنك ، فجيء بالجلاد فغمزه بعض اهل المجلس ان يعنف بساق الجاحظ و يطيل امره قليلاً فلطمه الجاحظ وقال : اعمل عمل شهر في يوم وعمل يوم في ساعة وعمل ساعة في لحظة فان الضرر على ساقي وليس بجذع ولا ساجة فضحك ابن ابي دواد واهل المجلس منه ، وقال ابن ابي دواد لمحمد بن منصور وكان حاضراً : انا اثق بظرفه ولا اثق بدينه ثم قال يا غلام ، صر به الى الحمام وامط عنه الاذى واحمل اليه تحت ثياب وطويلة وخفاً فلبس ذلك ثم اتاه فتصدر في مجلسه ثم اقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا ابا عثمان » .

مكاتباتهم له

هذه طائفة من اكابر الرجال الذين كان يلازمهم ويتردد اليهم وقد بلغ من استئناس محمد بن عبد الملك الزيات بالجاحظ ان ابا عثمان كان يأكل معه في يوم من الايام فجاؤا بفالوذجة فتولع محمد بالجاحظ وأمر ان يجعل من جهته مارق من الجام فأسرع الجاحظ في الاكل فتنظف ما بين يديه ، فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس ، فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً[1] .

ولقد رغب في مجالسه الامراء والخلفاء وصحب هؤلاء الامراء في أسفارهم وقد كانوا يكاتبونه ومن جملتهم الفتح بن خاقان الذي استوزره المتوكل وأمره على الشام وامره ان يستنيب عنه وكان المتوكل لا يصبر عن الفتح قدر ساعة .

وقد كانت للفتح بن خاقان خزانة كتب لم ير أعظم منها كثرة وحسناً وكان يحضر

(١) تاريخ ابن عساكر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

داره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة ، قال ابو هفان : ثلاثة لم أر قط ولا سمعت بأكثر محبةً للكتب والعلوم منهم : الجاحظ والفتح بن خاقان واسماعيل بن اسماعيل القاضي[1] .

ومن رسائل الفتح بن خاقان الى الجاحظ كتاب كتبه اليه يقول في فصل منه[2] : «ان امير المؤمنين يجد بك ويهش عند ذكرك ولولا عظمتك في نفسك لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما انت مشغول به ، ومتوفر عليه ، وقد كان التقى اليَّ من هذا عنوانه فزدتك في نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك فاعرف لي هذه الحال واعتقد هذه المنة على كتاب الرد على النصارى وافرغ منه وعجل به اليَّ وكن من جدا به على نفسه وتنال مشاهرتك قد استطلقته لما مضى واستسلفت لك سنة كاملة مستقبلة وهذا مما لم تحتكم به نفسك وقد قرأت رسالتك في بصيرة غنام ولولا اني أزيد في مخيلتك لعرفتك مايعتريني عند قراءتها والسلام » .

ولقد مدح الجاحظ جماعة ، منهم ابراهيم بن رباح بن شبيب الجوهري الكاتب وكان والياً على الاهواز ، وابوالفرج نجاح بن سلمة وسننظر في شعره وكان يكاتب جماعة منهم ابراهيم بن المدبر وكان ابراهيم هذا ينبسط مع ابي عثمان وكانا يجتمعان في كل ثلاثة ايام .

أسفاره

فلنصحب الجاحظ في أسفاره ولننقب عن الآثار التي خلفها بعد هذه الأسفار ، فقد كان ابوعثمان جوّاب آفاق ، كأنه دحا الارض من خبرته بها ، فقد دخل البلدان في صحارى جزيرة العرب والروم والشام وغير ذلك وجارى الطرق ودخل البراري وأمعن فيها وضرب الى المواضع الوحشية[3] .

ومن الذي يخامره شك في نعمة السفر ، ونتائجه في الأدب ، فقد يكون الضرب في مناكب الارض مشحذة للذهن ، مصقلة للخيال لما في مشاهد الطبيعة من مختلف الصور

(١) فوات الوفيات (الجزء الثاني) . (٢) معجم الادباء لياقوت (الجزء السادس) ص ٧٢ . (٣) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ١٥)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومتباين الالوان مما يكون مادة لرجال العبقرية يستمدون منها في الشعر والتصوير ، فقد اقتبس (شاتو بريان) من سفره الى اميركة صوراً شتى وألواناً غريبة أسبغت على فكره وعلى لغتـه نعمة الشباب ، ومن أراد ان يعرف ماالذي أوحاه السفر الى « لوتي » فليقرأ كتبه التي صوّر فيها مازاره من مختلف الأصقاع فقد رمى بطرفه في مشاهد هذا العالم المديد فأحيا في كتبه مصر القديمة وافر بقية المحرقة وقسطنطينية الساحرة وكان لبلاد فارس ولديار الشـام صورة في هذه الكتب ، وأحيا عواصف بحر من البحور ولذّات جزيرة من الجزائر ، وكان يمزج عواطفه بكل ماوقعت عليه عينه .

ولو نظرنا في أدبنا نفسه لرأينا للسفر اثراً في بعض هذا الأدب. فلو لم تحضر الهموم رحل ابي عبادة البحتري فيوجه عنسه الى (ابيض المدائن) لما كان لنا من شعره هذه السينية الخالدة التي لانجد سينية أفضل منها في شعر العرب .

اي شيء من ايوان كسرى لم يعرضه علينا البحتري ، أفاته شيء من صورة انطاكية ، أم فاته شيء من مواثل المنايا وتزجية الصفوف واخضرار لباس الجنـد واصفراره وعراك الرجال بين يدي كسرى واشاحتهم برمح او الاحتهم بترس فكأنهم احياء وكأنهم أموات .

أم فاته شيء من وصف مدامة كأنها مجاجة الشمس او كأنها ضوء الليل حتى حار البحتري في هذه المشاهد كلها واغتلى ارتيابه في العسكر فكانت يده تتقراهم باللمس فليس يدري أهو في حلم قد أطبق عينيه على الشك ام هي اماني غيرت ظنه فما تمالك في سحر هذه المشاهد وروعة هذه الصور ان اعانهـا بدموعه فبكى على ايوان بزّ من بسط الديباج واستلّ من ستور الدمقس لم يكن بانيه نكساً في الملوك ، وصبا الى قيان المقاصير بين حواء ولعساء ، وما تمالك ان بكى على رباع عمرت دهراً للسرور فصارت هذه الرباع للتعزي والتأسي !

ولو لم يغر المهلبي شعراء بغداد بابي الطيب المتنبي حتى تبـاروا في هجائه وأسمعوه مايكره وتماجنوا به وتنادروا عليـه لما اتخذ المتنبي الليل جملاً وفارق دار السلام متوجهاً الى حضرة ابي الفضل بن العميد والى ابي شجـاع عضد الدولة فكان من رحلته الى بلاد فارس هذه الابيات التي وصف بها شِعْب بوّان فقال :

ملاعب جنة لو سار فيهـا سليمان لسار بترجمان
طبت فرساننا والخيل حتى خشيت وان كرمن، من الحران
غدونا لنفض الاغصان فيها على أعرافها مثل الجمان
فسرتُ وقد حجبن الحرّ عني وجئن من الضياء بما كفاني
والقى الشرق منها في ثيابي دنانيراً تفر من البنان
لها ثمر تشـير اليك منـه باشربة وقفن بلا اوان
وأمواه تصل بهـا حصاها صليل الحلي في ايدي الغواني

وكان لنا من هذه الابيات صور ناطقة في الوصف أضفناها الى ميراثنا الأدبي .

فالسفر مادة من مواد التصوير والشعر ، وفيه نعمة ربما كانت اكبر من هذه النعم كلها ، فما أحسن ماقاله احد كتاب الافرنجة في هذا المعنى ، وليس يحضرني اسمه فقد قال : يسافر الانسان كي ينسى الحقائق . وفي كلتا هـذه معنى بعيد ، فكأنه يريد ان يقول ان الحياة تشتمل على حقائق لا تخلو من ايلام وايجاع فاذا سافر المرء نسي ألمها ، وذهل عن وجعها ، لان طرفه يلهو بامور تكاد تكون عزاء النفس وسلوانها .

واني اعتقد ان من جملة الامور التي أعانت الجاحظ على حياته المنبسطة كثرة أسفاره التي كانت تجدّد من قوة نفسه ونشاطها .

سافر الجاحظ الى انطاكية والى دمشق والى مصر ووضع كتاباً اسمه : (كتاب البلدان) وغير بعيد انه وصف فيه الامصار التي عرفها ولكن هذا الكتاب لم يسقط الينا فلسنا نعلم خصائص الآثار التي خلّفها لنا بعد رحلته ، وانما نعرف طائفة من هذه الآثار مبعثرة في تضاعيف مانتهى الينا من كتبه ، فاذا حكمنا عليه من هذه الناحية فلا يكون حكمنا قاطعاً ، وانما يتعلق هذا الحكم بما وصل الينـا من آثار أسفاره دون غيرها مما لم نطلع عليه .

فمن آثار سفره الى انطاكية قوله[1] :

« اني رأيت الثلث الاعلى من منارة مسجد انطاكية أظهر جدّة من الثلثين الاسفلين

(١) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٥١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقلت لهم : مابال هذا الثلث الاعلى أجدّ وأطرى ، قالوا : لأن تسميتنا ترفع من بحرنا هذا فكان لايمر بشيء الا أهلكه فمرّ على المدينة في الهواء محاذياً لرأس هذه المنارة وكان أعلى مما هي عليه فضربه بذنبه ضربة خرقت من الجميع اكثر من هذا المقدار فأعادوه بعد ذلك ولذلك اختلف في المنظر » .

فمن هذا الكلام يظهر لنا ان ديدن الجاحظ في كل امر من الامور التدقيق والتنقيب فكانت له نفس طُلّعة لا تريد ان يفوتها شيء .

اما آثار سفره الى دمشق والى مصر فانها أغرب وأعجب ، وقد كان سافر الى دمشق مع الفتح بن خاقان وذكر هذه الحكاية[1] :

« واحتاج أصحابنا الى التسليم من عض البراغيث ايام كنا بدمشق ، ودخلنا انطاكية فاحتالوا لبراغيثها بالأسرّة فلم ينتفعوا بذلك لان براغيثهم تمشي و براغيثهم نوعان : الابجل والبرد ، انما سموا ذلك الجنس على شبيه بما حكى لي ثمامة عن يحيى بن خالد البرمكي فان يحيى زعم ان البراغيث من الخلق الذي يعرض له الطيران فيستحيل بقاً كما يعرض الطيران للنمل وكما يعرض الطيران للدعاميص فان الدعاميص اذا انسلخت صارت فراشاً فكأن اصحابنا قد لقوا من تلك البراغيث جهداً وكانت له بليسة أخرى وذلك ان الذي تسهره البراغيث لا يستريح الا ان يقتلها بالعرك والقتل والاّ ان يقبض عليها فيرمي بها من فوق السرير فيرى انهن اذا صرن عشرين كان أهون عليه من ان تكون احداً وعشرين ، وكان الرجل اذا رام ذلك من واحد منها انثنت يده وكانوا ملوكاً ومثل هذا شديد على أمثالهم فما زالوا في جهد منها حتى لبسوا قمص الحرير الصيني وجعلوها طويلة الابدان والاردان فناموا مستريحين . »

هذه الآثار التي تركها لنا بعد سفره الى بلد يكاد يكون جنة الدنيا فلسنا ندري اتغنى الجاحظ بغوطة دمشق ام نظر الى مسجدها ، وهو يعلم مقدار افتخار الدمشقيين بمسجدهم فمن قوله :[2]

---

(١) كتاب الحيوان (الجزء الخامس ص ١١٣) .

(٢) رسائل الجاحظ على هامش الكامل — الجزء الاول —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وقول الدمشقيين ما تأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقبة مصلانا الا أثار لنا التأمل واستخرج لنا النفرس بين غرائب حسن لم نعرفها وعجائب صنعة لم نقف عليها وماندري اجواهر مقطعاته اكرم في الجواهر ام تنضيد اجزائه في تنضيد الاجزاء» .

انه ليعلم هذا كله فهل استمالة شيء من المسجد ومحرابه وقبة مصلاه وجواهر مقطعاته أم آلمه عض البراغيث في دمشق فشغله هذا العض عن كل حسن من محاسنها .

على انه قد اشار الى المسجد اشارة خفيفة فقال : (١)

« وقد رأيت مسجد دمشق حين استجاز هذا السبيل ملك من ملوكها ومن رآه فقد علم ان احداً لا يرومه وان الروم لا تسخوا انفسهم به فلما قام عمر بن عبد العزيز جلّله بالجلال وغطاه بالكرابيس وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق وذهب الى ان ذلك الصنيع مجانب لسنة الاسلام وان ذلك الحسن الرائع والمحاسن الدقاق مذهلة للقلوب ومشغلة دون الخشوع وان البال لايكون مجتمعاً وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه . »

ولئن ابقت دمشق في ذهنه صورة البراغيث فقد ابقت مصر في هذا الذهن العجيب صورة أبشع فمن قوله : (٢)

« كنت بعجت بطن عقرب اذ كنت بمصر فوجدت فيه اكثر من سبعين عقارب صغار كل واحد نحو ارزة . »

براغيث وعقارب !

هذا ما عرفناه من آثار سفره الى مصر ودمشق ، فاذا كان كلامه في كتاب البلدان وفي رسالة مصر من هذا النمط فلم يكن الجاحظ في اسفاره شاعراً ، اي لم يصور لنا ألوان التربة التي زارها تصويراً فيه حياة وشعور وانما كان يبحث عن حقيقة من الحقائق العلمية فلم يبعج بطن العقرب على سبيل اللهو وانما فعل هذا واضرابه على سبيل التحقيق وسننظر في هذا في كلامنا على تحقيقه وتجريبه . على ان صاحب صبح الاعشى ذكر ان

(١) كتاب الحيوان — الجزء الاول — ص ٢٩

(٢) كتاب الحيوان — الجزء الرابع ص ٥٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للجاحظ رسالة في مدح مصر قال فيها : وانما سميت مصر بمصير الناس اليها ، فاين هذه الرسالة [١] ؟

***

علّته

كيف انطفأ نور هذا العقل الذي تطلع في قرن متكامل الى كل ضرب من ضروب المعرفة حتى ازدحمت فيه المعارف على متباين اشكالها فكان لنا من مزدحمها كنز لا يفنى سجيس الليالي .

حكى ابو علي القالي عن ابي معاذ عبدان الخولي المتطبب قال : [٢]

دخلنا يوماً بسر من رأى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فلج فلما اخذنا مجالسنا اتى رسول المتوكل اليه ، فقال : وما يصنع امير المؤمنين بشق مائل ولعاب سائل ثم اقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان ، احدهما لو غرز بالمسال ما احس والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث واكثر ما اشكوه الثمانون . »

وقد حدث يموت بن المزرع شبه هذا الحديث فقال : [٣]

وجه المتوكل في السنة التي قتل فيها ان يحمل اليه الجاحظ من البصرة فقال لمن اراد حمله : وما يصنع امير المؤمنين بامرىء ليس بطائل ، ذي شق مائل ولعاب سائل وفرج بائل وعقل حائل . »

وحدث المبرد قال : [٤]

دخلت على الجاحظ في آخر ايامه ، فقلت له كيف انت ، فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حز بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه واشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها ثم انشدنا :

---

(١) الجزء الثالث — ص ٣١٨

(٢) امالي القالي — الجزء الاول — ص ٥

(٣) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس — ص ٧٩

(٤) معجم الادباء لياقوت — الجزء السادس — ص ٧٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أترجو ان تكون وأنت شيخ كما قد كنت ايام الشباب
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

وكان يطلي نصفه الايمن بالصندل والكافور لشدة حرارته والنصف الايسر لوقرض بالمقاريض لما احس به من خدره وشدة برده .

وكان يقول في مرضه[1] : اصطلحت على جسدي الاضداد ان اكلت بارداً اخذ برجلي وان أكلت حاراً اخذ برأسي ، أنا من جانبي الايسر مفلوج لو قرض بالمقاريض ما علمت ومن جانبي الايمن منقرس فلو مر به الذباب لتألمت وبي حصاة لا ينشرح لي البول معها وأشد ما علي ست وتسعون سنة . »

هذه جملة الروايات التي تتعلق بعلته ، وقد اثّر هذا المرض في كتاباته حتى قال في كتاب الحيوان ، وكتاب الحيوان ألفه في الربع الاخير من عمره[2] :

« وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه ، اول ذلك العلة الشديدة والثانية قلة الأعوان والثالثة طول الكتاب الى ان قال :

فان وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ومن سوء تأليف ومن تقطيع نظام ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تنكر بعد ان صورت عندك حالي التي ابتدأت عليها كتابي» .

شكواه من اللوم

ولكن الناس لم يسامحوه في هذه الحالة التي صوّرها فكانت طائفة منهم يتعقبونه ملتمسين المطاعن والمغامز فلم ينج الجاحظ من داء العبقرية ، وأريد بهذا الداء شر جماعة لاتهدأ أعصابهم الا اذا تقلبوا في المناهش والملاسع .

فمن قول ابي عثمان في هذه الجماعة[3] :

« فان كثيراً ممن يتكلف قراءة الكتب ومدارسة العلم يقفون من جميع هذا الكتاب (كتاب الحيوان) على الكلمة الضعيفة واللفظة السخيفة وعلى موضع من التأليف قد عرض له شيء من استكراه ، وناله بعض الاضطراب او كما يعرض في الكتب من سقطات الوهم

(١) مرآة الجنان — الجزء الثاني — ص ١٦٤ . (٢) كتاب الحيوان (الجزء الرابع ص ٦٩) . (٣) كتاب الحيوان (الجزء السابع ص ٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفلتات الضجر ومن خطإ الناسخ وسوء تحفظ المعارض على معنى لعله لو تدبره بعقل غير مفسد ونظر غير مدخول وتصفحه وهو محترس من عوامل الحسد ومن عارض التبرع ومن أخلاق من عسى ان يتسع في القول بمقدار ضيق صدره و يرسل لسانه ارسال الجاهل بكنه مايكون منه ولو جعل بدل شغله بقليل مايرى من المذموم ثقله بكثير مايرى من المحمود كان ذلك أشبه بالادب المرضي والخيم الصالح وأشد مشاكلة للحكمة وأبعد من سلطان الطيش وأقرب الى عادة السلف وسيرة الاولين وأجدر ان يهب الله تعالى له السلامة في كتبه والدفاع عن حجته يوم مناضلته خصومه ومقارعة اعدائه » .

من هذا يتبين لكم ان الفالج قد اثر في تأليف الجاحظ حتى انبرت جماعة لتطلب اللفظة السخيفة و لكلمة الضعيفة في كتاب الحيوان فكان يضطر الى مداراتهم واستمالتهم والى كثرة الاعتذار فمن قوله[1] :

« ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان و بظهر اصطناع الكتب في هذا الدهر لا احتجت في مداراتهم واستمالتهم وتوفيق نفوسهم و تشجيع قلوبهم مع كثرة فوائد هذا الكتاب الى هذه الرياضة الطويلة والى كثرة هذا الاعتذار حتى كأن الذي أفيده اياهم استفيده منهم وحتى كأن رغبتي في صلاحهم رغبة من رغب في دنياهم » .

فما زال الجاحظ في خاتمة حياته يشكو مرة فالجه ومرة شيئاً أشد من الفالج وهو لؤم بعض الأخلاق حتى ورد الخبر بموته .

وفاته

حدّث احمد بن يزيد بن محمد المهلبي عن ابيه قال[2] :

قال لي المعتز بالله : يايزيد ورد الخبر بموت الجاحظ ، فقلت : لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام العز ، قال وذلك سنة ٢٥٥ ، قال لي المعتز : قد كنت أحب ان اشخصه اليّ وان يقيم عندي ، فقلت له : انه قد كان قبل موته عطلاً بالفالج » .

وكان موته بالبصرة وقد قال فيه ابو شراعة :

---

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص ٥١) . (٢) تاريخ ابن عساكر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في العلم للعلماء ان يتفهموه مواعظ
واذا نسيت وقد جمعت علا عليك الحافظ
ولقد رأيت الظرف دهراً ما حواه اللافظ
حتى أقام طريقه عمرو بن بحر الجاحظ
ثم انقضت ايامه وهو الرئيس الواعظ

* * *

هذه خلاصة حياةٍ تقلّب صاحبها في كل أُفق من آفاق العيشة ، وخبر كل امر من امور الدنيا ، خبر خشونة الحياة ونعيمها ، وامتحن ذل السلطان وعزّه ، وتقلد جلائل الأعمال وصحب أصاغر الناس وأكابرهم ، وذاق اللذات بمجامعهـا فلم يخفَ عليه شيءٌ من لذة السفر ولذة العلم وماشابههما ، ومدَّ الله في أجله فكأنه يقول :

متى يأت هذا الموت لاتبق حاجة لنفسي الاَّ قد قضيت قضاءها

ان حياةً مثل حياة الجاحظ مزدحمة الحوادث ، قد يجد الإنسان في دقائقها كثيراً من العبر ، ولكني لاأرى الا بعبرة واحدة أجعلها خاتمة الكلام على هذه الحياة ، لوجودنا أشباه هذه العبرة في حياة طائفة كبيرة من رجال العبقرية .

حبس الجاحظ نفسه على الأدب والعلم مدة قرن متكامل وكان همه الا بعد التنقيب عن الحقيقة والتنبيه على الأضاليل ، على نحو ما نبينه في الاشارة الى تحقيقه العلمي ، فما هو جزاء هذه العناية بالأدب وبالعلم ، جزاء هذا كله تعقب الناس اياه وهو في أشدّ حالةٍ من الحالات ، واي حالة أشد من الفالج ، فقليلاً مانسامح وقليلاً مانلاين ، فقد طبعنا على التعقب ، ولهجنا بما يؤدي اليه من لواذع القول ولواسع اللفظ ، ننظر الى سيئة تسترها حسنات فلا تفترق العين الا هذه السيئة ونغضي على الحسنات فنعمي عنها او نتعامى ، وقد تولّنا المحاسن في كثير من الأحوال فلا نحب ان يبرع الى جنبنا بارع ، هذه طبيعتنا ، وعبثاً نحاول ان نهذّب هذه الطبيعة ، هل هذّب العلم من أخلاقنا ، أفلا نزل في هذه الأخلاق أشباه أجدادنا الذين كانوا يأوون الى الكهوف والغيران في شباب البشرية !

نعم ، هذا مالقيه الجاحظ من الناس في أواخر ايامه ، وأغرب من هذا كله انه ربما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الّف كتاباً في باب من الأبواب فيتواطأ على الطعن فيه جماعة بالحسد المركب فيهم وهم يعرفون براعة هذا الكتاب وفصاحته حتى كان ينسب كتبه الى من تقدم عصرهم فيأتيه اولئك الطاعنون باعيانهم فيكتبون كتبه المنسوبة الى غيره بخطوطهم و يتدارسونها بينهم و يتأدبون بها و يستعملون الفاظها ومعانيها ، ولو علموا ان هذه الكتب ألفها الجاحظ نفسه لما كان منهم الا الطعن والقدح !

وقبل ان انظر في سيرة الجاحظ كنت أنظر في سيرة المتنبي ، فما أشبه الذي كان يلقاه الجاحظ بالذي كان يلقاه المتنبي فأبو عثمان شكا الحسد ، وابو الطيب لم يسلم من شر الحساد .

كنا نعلم ان اباالطيب كان في ابتداء امره في خشونة من عيشه ورقة من حاله يشتهي كل شيء ، يشتهي النـاعم من الملابس والكريم من المطايا . توفي ابوه وهو فقير فضرب في مناكب الشام التماساً للرزق وكثيراً ما أشار الى فقره والى إخفاقه في السعي والى كساد شعره في اسواق بعض الممدوحين ، ومع هـذا كله ما كان يخلو من حسد الحساد وشماتة الشـامتين وكيد الكائدين ، فكان ضجره من هذه الأخلاق اللئيمة يطفح على جنبات شعره ، ولقد أفضى الامر بحساده الى ان شمتوا بموت جدته لانه كان يذهب في حبها كل مذهب .

لم يسلم المتنبي من شر الحساد وهو فقير فأخلق به ان لا يسلم من هذا الشر بعدان غرق في مكارم سيف الدولة الباهرات وبعد ان أنعل أفراسه عسجداً بنعمى ملك حلب فقد آلم كثيراً من الشعراء وكثيراً من رجال اللغة ، فكانت شكوى الحسد تفيض في شعره وربما تمنى القوم موته فنعوه وهو حي ولكنه كان ينتفض من بعد منعاهم فيزول القطن والكفن .

ترك المتنبيء سيف الدولة واتصل بكافور الإخشيدي فاندفع في شكوى الحسد وغادر كافوراً فوقع في بغداد في شر شعرائها الذين نالوا من عرضه وتباروا في هجائه واسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادروا عليه .

لم يسلم المتنبي من داء العبقرية في كل طور من أطواره ولئن كان الجاحظ يهزأ بحساده فلم يكن المتنبيء اقل هزأ منه بهؤلاء الحساد فلم يفكر في واحد منهم وربّ بيت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قاله في التمر بض بهم أشد من وقع السهام في غلس الدجى :

ومن يك ذا فم مر مريض يجـد مراً به الماء الزلالا

***

نظرت في سيرة الجاحظ وفي سيرة المتنبي وكنت أقرأ من ايام قليلة مقالاً أنشأه الكاتب الفرنسي (زولا) في وصف نعش الشاعر (فلوبر) .

لم يمش حول نعش هذا الشاعر الا ثلاثمائة رجل من باريز فقد غاب كثير من الذين كان يجب عليهم ان لا يغيبوا ، ومدينة الشاعر نفسه وهي (روان) لم تشيع اشهر ولد من أولادها فقد قالوا ان اهل (روان) انما هم تجار يسخرون من الادب على ان في (روان) كثيراً من الاساتيذ والمحامين والاطباء والشباب المستنير ، ان فيها من قرأ رواية مادام بوفاري فلم يتحرك واحد منهم ، فلم يصحب النعش الا مائتا رجل من (روان) وكثير من الناس كانوا ينظرون الى النعش على سبيل اللهو فلم يكن على وجه واحد منهم اثر من آثار الحزن والحقيقة ان اربعة اخماس اهل روان لا يعرفون فلوبر والخمس الآخر كانوا يكرهونه وقد ختم (زولا) مقاله المبكي بهذه العبارة : هذا هو المجد .

نعم هذا هو المجد ، وهذا ما يصادفه رجال العبقرية في حياتهم وفي مماتهم !

أفهدأت أفكار هذه الطبقة من الناس في عصر من العصور ؟ أفنال رجال العبقرية ما يستحقونه من الجزاء ؟ استغفر الله . انهم لا يريدون جزاء ولا شكوراً انهم اجل من كل جزاء ومن كل شكور ، وانما الذي يريدونه ان نكف عن نهشهم وعن لسعهم هذا هو كل جزائهم .

ومن البلاهة ان يبلغ من وساوسنا ان نعتقد ان مجرد الطعن على بارع من البارعين يحطمه تحطيماً أفحطم الجاحظ طعن الطاعنين ؟ أفهدم المتنبي نهش الناهشين ؟ أفلم يذهب اولئك الناهشون اللاسعون بين سمع الأرض وبصرها ولم يبق الا ذكر الجاحظ والا ذكر المتنبي !

اننا نستطيع ان نهدم الجاحظ واننا نستطيع ان نحطم المتنبي والسبيل الى ذلك ان نأتي بادب ابرع من ادب الجاحظ و بشعر اروع من شعر المتنبي . فنعفي يومئذ على آثارهما ، فاما الهذيان وأشباهه فيذهب جفاء واما النبوغ فيمكث في الارض !